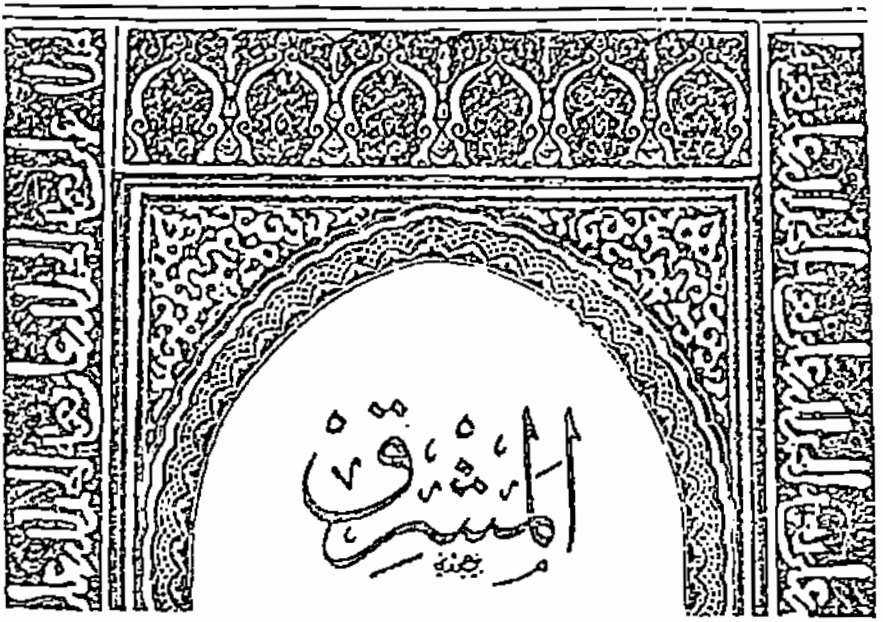

السنة الثامنة والثلاثون — كانون الثاني — اذار ١٩٦٠

الامبراطورية الفارثية وروما*

بقلم الاب رينه موترد اليسوعي

تمهيد

كانت سورية تؤلف منطقة الحدود الشرقية في الامبراطورية الرومانية ، كما انشأها ونظمها الامبراطور اوكتافيان اغوسطوس.

وكانت رومة قد سبقت فبسطت سلطتها ، مدة قرنين كاملين ، على مجمل العالم المتوسط . حتى اذا ظهر اغوسطوس على عرش القياصرة ، كان من همه ان يثبت هذه المستلكات ، ويؤمن لملك الرومان حدودًا طبيعية.

ومن المعقول ان تحتل سورية مركزًا اوليًا في اهتمامه هذا. وقد رأى ان لا يرمي الى التوسع ، كما رمى اليه بعض خلفائه كتراجان وقراقلا اذ حاولا فتوحات

* مادة المحاضرة الاولى من محاضرات « معهد الآداب الشرقية » في فرع « التاريخ والاثريات في سورية وفينيقية ».

يذهبان اليها من سورية الى الشرق ، متشبهين بالاسكندر الكبير ؛ فتقصر همته على وقف العالم الروماني على شاطئ الفرات وحدود الصحراء .

ذلك ان الصحراء تظهر حدًّا طبيعيًّا صالحًا . ولطالما سعى الرومان الى خلق مساحة مقفرة تفصل بلادهم عن بلاد الاعداء ، فاكتسحوا الاراضي على شاطئ الرين ، وجلوا البرابرة من السكان على طول المناطق المحتلة ، حتى يكوّنوا اراضي خالية ، لا تتألب فيها الجموع في سيل الانتقاض الّا وآها العيون ، وشعر بها الأرصاد.

بيد ان الصحراء في سورية ، ولا سيما ما كان منها متاخمًا لمناطق الحضر ، ليست من الخلاء بحيث توافق غايات الرومان من تلك الاراضي المقفرة . فالبدو يأهلون هذه القفار ، على تراميها في الابعاد . ومهما يكن من ضآلة شخوصهم ، واختفائهم في الاغوار المتعددة ، ووراء الكثبان المتشابهة ، فانهم لا يلبثون ان يظهروا ، مجتاحين البوادي طولًا وعرضًا ، عائثين بالغزو ، مدافعين ، حتى الهلاك ، عن حريتهم التقليدية .

وهناك ، الى الشمال ، على الفرات ، ممالك صغيرة او إمارات منظّمة منها كوماجينية ، وأوسروينية ، وارمينية . فكان على رومة ، والحالة هذه ، ان تعزّز حدودها في وجه البدو فتضبط نزعاتهم ، وان تبسط نفوذها على هذه الامارات المتاخمة لها فتأمن شرّها . ولكنها اصطدمت ، في هذا المشروع المزدوج ، بامبراطورية نشيطة كانت ترمي الى الهدف نفسه على الفرات الاعلى ، تُعرف بالامبراطورية الفارثية .

هي امبراطورية قوية شديدة البأس . وناهيك في بأسها أنها قاومت رومة مقاومة مجدية حتى ان المؤرخ فرونتون لم يحجم عن القول : « لقد قام الفارثيون وحدهم ، بين البشر اجمع ، فجابهوا الشعب الروماني بمدارة خشية ابدًا . »[1] وهذا قليل يشبّه مقاومة الفارثيين بمقاومة الجرمانيين لرومة .

---

1) Fronto, *Princ. hist.*, p. 315, Mai (apud Chapot, *La Frontière de l'Euphrate*, p. 39)

تأسيس الامبراطورية

كيف أسست هذه الامبراطورية الفارثية ؟ وما هو أصل هذا الشعب الفارثي ؟ سؤالان من الصعب ان نجيب عنهما في حالة معلوماتنا الحاضرة. فلنكتف بالقول ان تأسيس الامبراطورية في نحو السنة ٢٤٧ ق. م. يُنسب الى الملك تيريدات المتخذ اسم أرساكيس. وأرساكيس هذا هو المؤسس الرمزي للدولة التي نُسبت اليه فقيل الدولة الارساكيية. اما مؤسس الامبراطورية الحقيقي فهو ميثريدات الاول ، ملك الفارثيين ، الذي حكم من نحو السنة ١٧٠ الى السنة ١٣٨ ، وامتدت سلطته من بحر قزوين الى خليج العجم.

وقد عزّز نشأة هذه الامبراطورية حادثان مهمّان: اولّهما ضعف الدولة السلوقية منذ انتصار الرومان على انطيوخوس الثالث سنة ١٩٨ ، في مغنيزية على الماندر. وثانيهما تلك الحركات العميقة في شعوب آسية التي بدأت منذ القرن الرابع قبل المسيح ، واخذت تقذف بالجماهير المجتاحة نحو الغرب والجنوب.

وكان من تلك الاقوام الشعب القرني او البرني الذي يدعوه اليونان والرومان « الفارني » ، واصله من القبائل النازلة ، جنوبي شرقي بحر قزوين ، في تلك البطائح المنبسطة شمالي هركانية . وليس من شك في ان الفارثيين من عنصر ايراني ، تكلّموا لهجةً ايرانية كتبوها ، في ما بعد ، بالخط الفهلوي . وكانت اولى محاولاتهم في اكتساح الاراضي السلوقية في نحو السنة ٢٨٠ ق. م. ثم توصّلوا الى احتلال مرزبانية هركانية - فارثية . ومنها تقدّموا الى بلاد ميدية وجعلوا من اكبتان او همذان ، عاصمةً صيفية لهم. وفي نحو السنة ١٥٠ ق. م. اجتاحوا بلاد ما بين النهرين ، واجتازوا الفرات الى احتلال المنطقة القائمة بينه وبين الصحراء ، واشهر مدنها دورا - اوروبوس ، او الصالحية كما تُدعى اليوم ، الواقعة في الطرف الشرقي لمنطقة الانتداب الفرنسوي. ولا يخفى ما كان من اتصال دائم وثيق بين سورية ومدن المنطقة المذكورة الواقعة في نفوذ تلك الدولة النصف المتحضرة . وكذلك القول عن تدمر البادئة منذئذٍ باستغلال تجارتها على افضل ما يمكن.

النظام الاجتماعي

اما نظام الفارثيين الاجتماعي فلا نعرف عنه الّا الشذرات . يظهر ان في اساس المجتمع الفارثي طبقة من سراة الملّاكين ذوي الاراضي الواسعة . وان للملك سلطة مطلقة ، لا تمنعه من استشارة مجلسين ساميين : مجلس مدني يؤلّفه اعيان الامة ؛ ومجلس ديني يجمع الحكماء او المجوس . ومن حقّ هذين المجلسين انتخاب الملك . وليس من الضروري ان يكون الملك المنتخَب بكر الملك السابق . ومن المعروف ان الملك يتزوّج عدة نساء ، وكثيراً ما يتزوّج اخته او اخواته جميعاً ، كما هو مألوف في عادات الفرس القدماء . ويُدعى الملك « اخ الشمس والقمر ».

واما ديانة الفارثيين فالمزدكية الشعبية . وهي تختلف عن الزرادشتية الاصيلة ، وعن عبادة النار التي سيتخذها الساسانيون بعد ان يقلبوا الفارثيين ويحلّوا محلّهم على عرش بلاد فارس في السنة ٢٢٧ للمسيح . فيتابع ملوكهم مجابهة رومة وبيزنطية بأس اشدّ واجدى .

المدن الفارثية

امتدت الامبراطورية الفارثية من بحر قزوين الى ما وراء الفرات من ناحية الغرب ، منبسطة من بطائح هركانية في الشمال ، محتلّة « طريق الحرير » منذ السنة ١١٥ ق. م. ، التي كانت تتخذها القوافل القادمة من الصين بطريق تركستان ، مستفيدةً من هذه التجارة المزدهرة في القرن الاخير قبل المسيح ، ولا سيما في مناطق فارثية ، وميدية شمالي بلاد الافغان الحالية .

وكان من عادة الفارثيين في بناء مدنهم ان يحاوطوها بحصنة مستديرة كمدن الحثّيين وغيرهم من الشعوب القديمة . وقد رأينا هذا الرسم المستدير في بناء المدن المحصّنة في تلّ المزّر الذي أشارت اليه آخر المراقبات الجوّية على الحدّ الشرقي للامبراطورية الرومانية ، كما رأيناه في بغداد العبّاسيين ، بشهادة مؤرّخي ذاك

العصر.[1]

وهو رسم مدينة فراآتا او فراآسبا الفارثية المعروفة اليوم باسم طاق - إي - سليمان الواقعة على قمة جبل يبلغ ارتفاعه ٢٤٠٠ م ، على ٢١٠ كيلومترات جنوبي شرقي بحيرة أورمية[2]. هي مدينة مستديرة يحيط بها سور ذو ٢٧ برجاً بارزاً ، يفتح فيه بابان . وفي دائرة المدينة بحيرة جبلية يغذوها ينبوع دائم. وكان الملك فراآت قد جعلها حصناً لقسائه ومخزناً لأمواله. فشى عليها مرقس انطونيوس الروماني احد الثلاثة المسلطين ، وحاول فتحها سنة ٣٦ ق. م. في غزوة مفاجئة. ولكنه لم يُفلح. (الرسم ١)

ومن مدن الفارثيين الشهيرة حَطرة التي بُنيت في اوائل القرن الأول قبل المسيح[3] . وجعلت ثغراً في وجه العدو ، ومحطةً مهمةً للقوافل ، على نحو ٥٠ كيلومتراً الى الغرب والشمال الغربي من مدينة اشور القديمة ، على الطريق الآخذة من بابل الى تَرْب ، قريباً من منبع الخابور. هذه المدينة كانت محاطةً كمدينة فراآتا ، بسور مستدير يتجاوز قطره ٣ كيلومترات. وفي وسطها مستطيل يطيف به خندق وسور ، وفي المستطيل قصر ذو إيوانَين او ليوانَين. (الرسم ٢)

ومما امتاز به هذا القصر زخارف متنوّعة يونانية الإلهام ، ولكنها مصنوعة بأيدي الفنانين الوطنيّين. منها اقنعة وجيّة تعلوها شرفة[4] ، تشبه الاقنعة المصوّرة على جدران پومپي[5] ، ولها ، مكان العيون ، أحجرة برّاقة وافرة التأثير. الّا ان زيّها عاديّ مبتذل مكرّر نفسه في جميع الاقنعة دون تنوّع[6] (الرسم ٣). يظهر هذا الزخرف على جدران الإيوان او الليوان . والليوان هو للاستقبال

١) اطلب المشرق (٣٢ [١٩٣٤] ٧٦)

٢) راجع Arthur Upham Pope, *Illustr. London News*, 26 Févr. 1938, pp.348-9

٣) W. Andrae, *Hatra*, I^e Teil, 1908, II^e Teil, 1912 (*Wissenschaftliche Veroeffentl. des Deutschen Orients - Gesellschaft*, n^os 9 et 21)

٤) W. Andrae, *Hatra*, I, pl. IV

٥) راجع Rostovzeff, *Dura and the Problem of Parthian Art*, 1935, p. 214 n. 69 et pl. 32 a

٦) W. Andrae, *Hatra*, II, p. 158 et pl. XIX, 3

مستطيل مفتوح للهواء الطلق ، يفضي الى ساحة فسيحة . وهو من افضل الابنية واوفقها لاولئك البدو نصف المتحضرين . ويرى بعض العلماء ان الليوان او الايوان إيراني الأصل غدا من اهم المظاهر البنائية في عمارة الساسانيين ، وكذلك في عمارة « البوادي » او بنايات الخلفاء الأمويين في البادية .[1]

ملوك الفارثيين

ولم يكن ملوك الفارثيين ، اصحاب هذه القصور الجميلة ، ليحيوا حياة البرابرة . وقد دلّت الآثار على انهم اخذوا بنصيب من الحضارة البنائية كما رأينا ، ومن الحضارة الفنية كذلك . ولدينا عدة نقود ونقوش مُثِّلت فيها رؤوس بعض الملوك والملكات . منها دراهم فضيّة[2] عليها صورة مثريدات الثاني (١٢٤-٨٧) معاصر سيلا الروماني ، وفراآت الثالث الذي اتخذ لقب « ملك الملوك » سنة ٦٦ ق . م . وكان معاصراً لبومبيوس . وفراآت الرابع ، معاصر اغوسطوس .

ومما اكتُشف حديثاً في مدينة شوشن رأس امرأة من نساء الملوك ، يرقى الى القرن الاول قبل المسيح على التقريب . وهو من صنع نحّات يوناني كما يدلّ الاسم المحفور : « انطيوخوس بن درياس صنعه » . اما زيّ الرأس ففارثي بطريقة صنع الشعر كتلةً واحدةً مرفوعة الى اعلى الرأس ، ينحدر منها غديرتان مستديرتان مترخيتان كل الى جهة خدّ من الخدين . ويظهر ان صاحبة هذا الرأس سيدة جميلة تميل الى السمن وهي في منتصف العمر ، ويشبهها الاستاذ كومون بتماثيل افروديت السورية[3] . ولعلّها الجارية اللاتينية موسى التي اهداها اغوسطوس قيصر الى الملك فراآت الرابع . (الرسم ٤)

الثياب والاسلحة

ولا بدّ من الاشارة الى ثياب هؤلاء الملوك زمن السلم ، وفي مواقع

(١) W. Andrae u. H. Leuzen, *Die Partherstadt Assur*, 1933 (*Wiss. Ver. D O G a.* 57), p. 5

(٢) راجع Fr. Sarre, *Die Kunst des alten Persien*, pl. 66

(٣) راجع Cumont, *C R A I*, 1939, pp. 330-339

الرسم ١

تصميم
مدينة قرا آتا

يُرى في شمالي
الصورة بعض
الخرائب، مع
البحيرة الجبلية
الموجودة
ضمن الاسوار

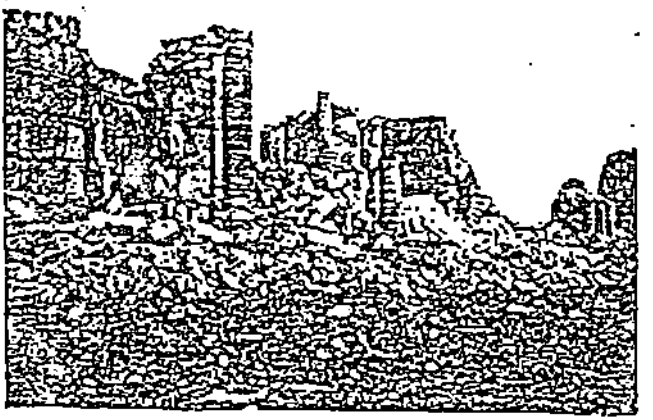

الرسم ٢
خرائب مدينة
حطرة
آثار الباب الداخلي

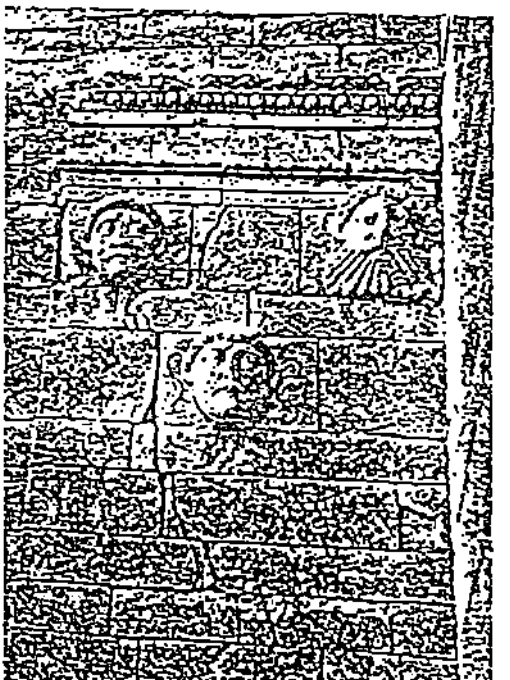

الرسم ٣
بعض الاقنعة التي تزخرف
قصر حطرة

الرسم ٤
رأس الملكة المكتشف في شوشن

الرسم ٥
انطيوخوس وميترا

الرسم ٦
تمثال نارني

الرسم ٧
رأس التمثال المذكور

الرسم ١

تصميم
مدينة فرا آتا

يرى في شمالي
الصورة بعض
الخرائب، مع
البحيرة الجبلية
الموجودة
ضمن الاسوار

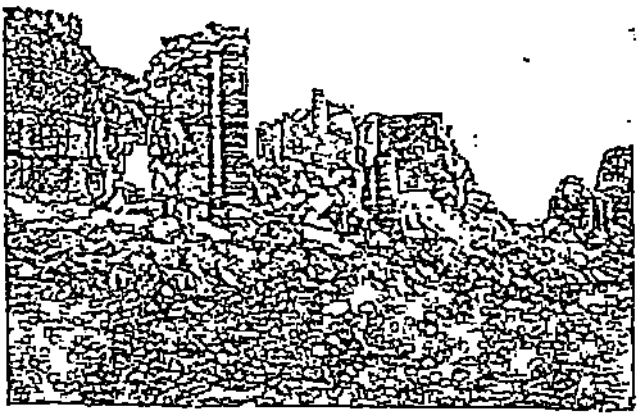

الرسم ٢

خرائب مدينة
حطرة
آثار الباب الداخلي

الرسم ٣

بعض الاقنعة التي تزخرف
قصر حطرة

الرسم ٤
رأس الملكة المكشف في ڤرشن

الرسم ٥
انطيوخوس وميثرا

الرسم ٦
تمثال فارني

الرسم ٧
رأس التمثال المذكور

الحرب[1]. كان ثوب الملك الفارثي لا يختلف ، على الغالب ، عن الثوب الفارسي او الفارسي - الفارثي الظاهر في رداء انطيوخوس الاول ، ملك كوماجينة ، ورداء ميثرا البارزين في نقش نمرود داغ في بلاد كوماجينة ، الراقي الى ما قبيل السنة ٣٨ ق. م. (الرسم ٥) وهذا الثوب شبيه بالثوب التدمري البارز في اجمل النقوش المدفنية المكتشفة في مقابر تدمر ، كما لاحظ ذلك الاستاذ سيريغ.

وهناك رداء حربي ، وهو رداء الأشراف. يتألف من ثوب يشبه الردنكوت ، بالمعنى الاصلي ، اي الثوب المختص بالخيالة . ويتبعه عقد يضمه الفارس في عنقه ، ويعلق سيفاً بزنّاره. كما يظهر في نقش محفوظ في متحف برلين.[2]

وقد استفدنا من اكتشاف حديث ذكره السر اوريل ستين والاستاذ اندره غودار ، مدير مصلحة الآثار الإيرانية[3] ، معرفةً بثوب امير فارثي صغير كان يتيم، في القرن الاول بعد المسيح، في مدينة شامي قرب مالّيير في منطقة خوزستان، على نحو مائة كيلومتر شرقي شوشن . واجمل القطع المكتشفة تمثال من البرونز يبلغ طوله متراً واربعة وتسعين سنتيمتراً ؛ ويؤلف من قطعتين مختلفتي اللون : الجسم وهو اثقل من ان يكون مصنوعاً في غير المكان المكتشف فيه. يرمي لونه الى الاخضر الباهت. والرأس وهو اسود اللون. ويظهر انه اصغر من ان يتناسب تماماً مع الجسم ، لأنه يخالف قاعدة القدماء بجعلهم نسبة الرأس الى الحجم الكامل نسبة واحد الى سبعة فقط. اما الرأس الحالي فانه يتضمن ثماني مرات ونصف في مجمل طول التمثال. فيُرجّح اذاً ان الرأس سُبك وحده ، وقد يكون عمل فنان غير الذي قام بصنع جسم التمثال . (الرسمان ٦ و٧)

اما الشخص المُمثّل فليس في قسماته شيء من الملامح الاسيوية . بيد ان ما يهمنا ، فوق هذا، هو الثوب الذي يرتديه ؛ يؤلف اولاً من سترة تشبه سترة السكيثيين ، مفتوحة على الصدر بين منطقتي جلد ، مقفلة على الوسط بزنّار .

---

(١) راجع Fr. Sarre, *op. cit.*, pl. 65

(٢) راجع Fr. Sarre, *op. cit.*, pl. 65

(٣) A. Godard, *Les statues parthes de Shami, Abami, Athâr-e-Irân*, II, 2, 1937, pp. 285 ss.

وتحتها سراويل قصير. اما الساقان فلا يغطيها سراويل الفُرس المثقل، بل يلتفّ عليهما طاقان ينحدران لفًا على القدمين فيسهّلان على الفارس ركوب الفرس. وعلى كل فخذ خنجر طويل.

ويظهر ان هذا الرداء الركوبي كان رداء النبّالة الفارثيين، مَن تمرّدوا، في حروبهم، ان يتظاهروا بالهرب امام العدو، حتى اذا لحق بهم فاقترب منهم، داروا عليه ورموه بنبلةٍ لا تخطئ.[1]

ولدينا قطعتا آجرّ مكتشفتان في سورية[2] تمثلان خيالة من السكيثيين. وهم يختلفون عن الفارثيين باستعمال القوس، ولكن ثيابهم لا تختلف في شيء عن ثوب امير شامي الفارثي. (الرسم ٨)

على هذا الزيّ ثوباً وسلاحاً، ما عدا القوس، كان الاربعون الف فارس نبّال الذين عبّأتهم فارثية لمقاومة كراسوس.

ومن كتائب الفارثيين الخاصة بهم كتيبة الفرسان ذوي الخيول المدرّعة. وكانت تبلغ الستة آلاف في جيش فارثية. هم فرسان من اشراف الدولة، كانوا يلبسون ويُلبسون خيولهم الدروع المنسوجة بالزرد، او دروع الجلد المثقّل فيها قطع الحديد، ويتسلحون برمح طويل وسيف عريض. وقد وُجد في دورا-اوروبوس، غربي الفرات، صورة لاحد هؤلاء الفرسان، مع درع من ذوات الحديد المثقّل تكاد تكون تامة[3]. ولم يكن العدوّ لينال من هؤلاء الفرسان الّا عن الجنبين او على الساقين، لانه، لما لم يكن لخيولهم ركاب، كان من الضرورة ان يُطلق الساقان للاستمساك على ظهر الفرس.

وكان لا بدّ لهؤلاء الفرسان من خيول ضخمة قوية. فكانوا يأتون بها من مقاطعة نيزية في بلاد ميدية، فتمتاز بعلوّ صهواتها، وضخامة جماكلها، على خيول البطائح الصامرة. وكان ان ارمينية اخذت تستورد من هذه الخيول

---

١) كما يقول فرجيل: Fidentemque fuga Parthum versisque sagittis (*Georgi-ques*, III, 31)

٢) Fr. Sarre, *op. cit.*, pl. 54

٣) *Cambridge Anc. History, Vol. of Plates, IV*, pl. 26

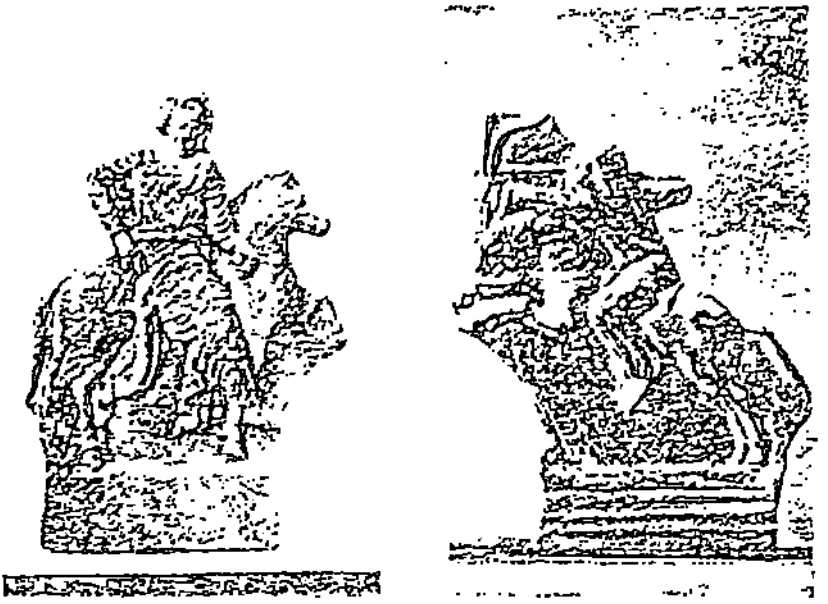

الرسم ٨

تمثالان من الآجرّ لحيالة فارثيين او سكيثيين

نقود فارثية

الضخمة ، وتلتها بلاد الصين. وقد رأينا الجنس نفسه من الخيول ، بعد اربعة او خمسة قرون في آثار الساسانيين. من ذلك فرس سابور الاول في ذاك النقش الذي يمثله مستقبلاً خضوع الامبراطور ڤاليريان المأسور على اثر انكساره سنة ٢٦٠

فارثية وروما

هذا هو الشعب بأسلحته ومعدّاته ، الذي كان على رومة ان تجابهه بكتائبها منذ عهد پومپيوس.

في السنة ٦٩ قبل المسيح ، بعد ان انتصر لوكلّوس على دكران ، او تيغران ، ملك ارمينية ، طلب فراآت الثالث ، ملك الفارثيين ، عقد محالفة مع رومة . فرضيت رومة ، ونال الملك الفارثي ، بفضل هذه المحالفة ، ان يجعل حدود مملكته الغربية مجرى الفرات . على انه تردّد في السير لمعونة رومة في محاربة دكران .

وتشاء الأيام ان تنقلب سياسة دكران ، فينهي الحرب بمصالحة رومة ويُصبح صديق الشعب الروماني . فيذكر پومپيوس ، الذي خلف لوكلّوس على قيادة الجيش الروماني ، ما كان من تردّد فراآت في معونة رومة . فيحرمه المقاطعات التي كان موعودًا بها ، ويرسل احد ضباطه ، المدعوّ أفرانيوس فيحتلّها باسم رومة .

عند ذاك مشى فراآت على بلاد دكران واحتلّ مقاطعة أديابينة ، مقاوماً رومة بمقاومة البرن لتيرنه.

وكان في هذه المقاومة ما يحسبه الرومانيون اعتداء جريئاً ، بل جرعة لا تغتفر. ففكّر پومپيوس باكتساح بلاد ما بين النهرين بأسرها ، على ما يروي بعض المؤرخين. بيد ان الحوادث حوّلت في خطط هذه الحرب .

وذلك انه في السنة ٥٥ ق. م. نشب خلاف ، على الملك ، بين ولدي فراآت الثالث وهما متريدات الثالث واوروديس الثاني . فاستمان متريدات بالرومانيين . وسرعان ما مشى لنجدته غابينيوس ، حاكم سورية ، فقطع الفرات جادًا . ولكنه ادركه اذ ذاك موند من قبل بطليموس الحادي عشر ، ملك

مصر اللاجئ الى قبرص ، يعرض عليه عشرة آلاف وزنة من المال ، اذا اعاده الى عرشه . فرجع غابينيوس على اعقابه واتجه جهة مصر .

فخاب امل متريدات الثالث ، وغلبه على امره احد اعضاء اسرة سورين الارستوقراطية . فالتجأ الى سلوقية ، على دجلة ، وتحصن فيها مدة ، ولكنه لم يلبث ان استسلم وهلك في السنة ٥٤ ق. م.

وفي السنة نفسها مشى القائد الروماني كراسوس — وهو مرقس ليسنيوس كراسوس ، الذي كان قد ألف السلطة الثلاثية الاولى مع قيصر وبومبيوس — فدخل الاراضي الفارثية على رأس سبع كتائب.

ولا يهمنا البحث في الاسباب السياسية الداخلية التي دعت ارباب الحكومة الثلاثية الى تسيير هذه الحملة المشؤومة . انما المهمّ ان ندرس ما قامت به من تجريد رَجُلَي حرب وطريقتي عراك ووضعهما وجهاً لوجه .

قال تارن في تاريخه :

« كان كراسوس من اولئك القوّاد الذين كثيراً ما عرفتهم رومة : شجاعاً عنيداً ، ذا مقدرة متوسّطة ، شديد التشبث بآرائه . وقد يظهر انه ظنّ مهنته تقوم بوضع كتائبه تجاه العدوّ ، فتقوم الكتائب من نفسها بما بقي . ولم يكن رجاله يشعرون باقل اخلاص لشخصه يدفعهم الى التضحية في سبيله ، ولم يكن هو ليفهم كيف يمكنه ان يولّد هذا الاخلاص . وكان من سوء حظّه انه صادف ، في آخر حياته ، خصماً يتصف بكل ما كان ينقصه من خِيَلة . »

وكان هذا الخصم يُدعى سورينا — او السوريني نسبةً الى اسرة سورين الارستوقراطية ، — مَن رأيناه يساعد اورودس الثاني على اخيه متريدات ويثبت عرشه . وكان قد اصبح الشخص الثاني في الامبراطورية كلها ، تألف من رجاله جيشاً بلغ عشرة آلاف فارس متسلّحين بالقسيّ وحدها ، وهم نبّالو الفارثيين المشهورون الذين تمرّنوا طويلاً برافقتهم قائدهم سورينا في جميع غزواته . وكان هذا « العبري المتأنق » ، كما يسميه كركوبينو متخذاً تعبير بلوتارك ، يجمع بين آنق مظاهر الترف واشدّ عزائم الشجاعة . « كان يجعّد شعره ، ويخطّط وجهه ، ويجرّ وراءه عدداً من النساء كبيراً . ولكنه يخفي ، تحت رداء هذا الشباب

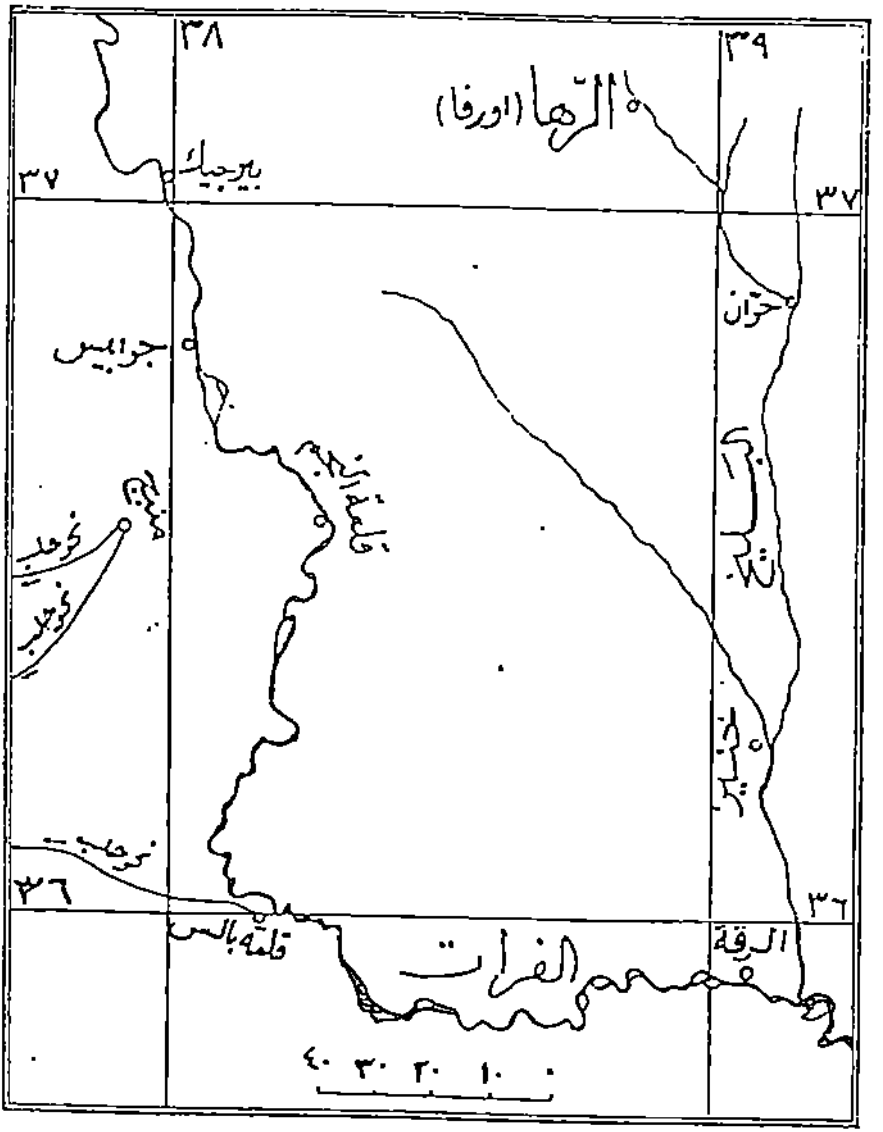

خارطة مستطيل الأسروين

لتتبع المعركة بين الرومان والفارتيين

البرّاق ، وهو لا يتجاوز الثلاثين ، دهـاء عميقاً ، وعزماً ابيًّا ، وخبرة شيخ خنكته الحروب . »

فرأى ان يتمّ معدّات خيّالته بألف جمل تحمل الذخائر من النبال . وهكذا سدّ تلك الثلمة التي كثيرًا ما ظهرت في حروب النبّالة فاضطرتهم الى وقف المعركة اذا ما فنيت عدّتهم من النبال[1] .

* * *

تقدّم كراسوس مسرعاً فاحتلّ مناطق البليخ ، وهو احد سواعد الفرات ، يزلف الحدّ الشرقي للمستطيل المعروف بمستطيل الأسرُوين . على ان القائد الروماني اضاع الشتاء عبثاً في سورية . حتى اذا عزم في آخر ربيع السنة ٥٣ ق. م. على مهاجمة الفارتيين ، كان هؤلاء قد قرروا خطتهم بالسير على ملك ارمينية ليمنعوه مساعدة الرومانيين . وقد قام بتنفيذ هذه الخطة الملك اورودس الثاني بنفسه . اما القائد سورينا فقد عسكر بجيشه على البليخ ، بين حرّان وخنيز او إخناي ، في نقطة تتقاطع فيها الطريقان الآخذتان من بلاد ما بين النهرين الى سورية ، فتصعد الواحدة الى الشمال قاطعة الفرات على جسر بلقيس ، او زوغمة ، وتسير الاخرى جنوباً نحو منبج ، بامبيكة - هيراپوليس القديمة ، منحدرة منها الى حلب . (راجع الخارطة في الصفحة السابقة)

فقطع كراسوس الفرات ، تحت زوغمة . وكان في جيشه ٢٨٬٠٠٠ من رجال الكتائب ، و ٤٬٠٠٠ فارس روماني ، و ٤٬٠٠٠ جندي من المشاة ، وفرسان اميين من امراء البادية اسمها أبجر الثاني ، أمير أوسرُوين ، وألشودونيوس او ألخودونيوس (كذا) . ولم يكد يصل الى منبج منحدرًا والفرات ، حتى وردت الاخبار بظهور خيالة العدوّ جهة الشرق . فحملته الحماسة على اقتراف الخطأ بتركه شاطئ الفرات ، واندفاعه وراء اولئك الخيالة في مجاهل بدوية لا ماء فيها . اما آبارها المتفرقة فلا تكاد تفضل عن حاجة الجمال . وبعد مسير يوم ونصف يوم ، دون ماء ، تحت شمس آيار ، ادرك الجيش خفة

[1] راجع M. W. Tarn, *Les Parthes*, p. 13

البليخ بين حرّان وخنيز ، عند ظهر السادس من ايار (او الثامن والعشرين منه).

ولم يكد الجند يتناولون غذاءهم خفيفاً سريعاً حتى فاجأهم القائد بأمر السير جنوباً نحو خنيز . عندئذٍ وصل اليه الخبر بان الفارثيين هاجمون على جيشه.

اما الاميران العربيان أبجر والخودونيوس فاختفيا في فرسانهما بسرعة عجيبة . واما كراسوس فصفّ جنوده على طول البليخ. وعهد الى ابنه پوبليوس كراسوس بقيادة الميسرة ، والى كاسيوس بقيادة الميمنة ؛ محتفظاً بالقلب لنفسه مؤلفاً فيه ٤٨ فرقةً على ذاك الشكل المربّع الذي اصبح منذ عهد لوكلوس خطة الكتائب الناجعة في مقارعة فرسان المشارقة . ولم يلبث الفارثيون ان ظهروا ، على ضرب صنوجهم وطبولهم ، يرفعون الألوية الحريرية خفّاقةً بما عليها من العقبان تجابه عقبان رومة . وكان اول اعمالهم ان أطلقوا الأعنّة لخيولهم الثقيلة فهجمت ، مزعزعةً مراكز المشاة الذين كانوا يؤلفون جبهة الجيش الروماني. ثم انسحبت الخيالة الثقيلة الى ما وراء الرماة فبدأ هؤلاء عملهم تمطرين الرومان وابلاً متتابعاً متواصلاً من النبال . وان يكن الترس الروماني يقي صاحبه من السهم المرميّ مستقيماً ، فكيف باتقاء السهم المنحرف او الآتي من وراء الظهر. وأنّى لفرسان رومة وشاتها بمقارعة هذا الوبل الهابط من كل ناحية المتدفّق من كل صوب ، تمدّه الذخيرة التي يحملها الف جمل وراء النبّالة.

ولم يطل العراك حتى كاد العدوّ ، وهو لا يتجاوز ثلث الجيش الروماني عددًا ، يميل الى النصر فيضغط على ميمنة الرومانيين ، قبل ان يتم تأليف المربّع في الوسط . عند ذاك امر كراسوس ابنه پوبليوس الذي كان يتولى قيادة ثماني كتائب ، والف فارس غالي ارسلهم قيصر ، وبعض الوحدات الخفيفة ، ان يبدأ الهجوم. فأطاع الشاب واندفع بفرسانه على العدو. بيد ان الفارثيين ، في تراجعهم ، جرّوه الى أبعد ما كان يريد ، فانقطع عن مشاته ولم يتوَ فرسانه الغاليون على مقاومة فرسان الفارثيين المصفّحين فكانت كسرتهم قاضيةً عليهم وعلى قائدهم. وكم كان ألم كراسوس شديدًا عندما رأى احد الجنود يحمل اليه رمحاً ركز فيه رأس ابنه پوبليوس. على انه تجلّد وقال للجندي ان الألم له وحده ، والمهمّ ان تنتصر رومة . وانصرف الى تعزيز مربّعه ، في الوسط ، الذي ظلّ يقاوم حتى

الليل. وفي الليل تراجع الفارثيون عن العراك شأنهم في جميع حروبهم.

ولو أحسن كراسوس خطته الحربية لكان أمر بالهجوم على معسكر الفارثيين ليلاً. فبيتهم، وهم مشاة لا يميّزون في الظلام اهدافاً لنبالهم. على انه أخطأ في الاولى، وأخطأ في الاخرى. ولم يكن في جيشه اذ ذاك الّا من يفكر بالهرب. فتراجع الجند مع قائدهم تاركين ٤ آلاف جريح، ملتجئين الى حرّان. ولمّا لم تكن المدينة صالحة للحصار، حاول كراسوس في الليلة الثانية ان يصل الى بسّاكة في سفح جبال أرمينية. ثم وقع في حبال الخداع اذ دُعي الى عقد صلح مع الفارثيين، فقُبض عليه وقُتل في ٩ ايار او ١ حزيران سنة ٥٣ ق. م.

وهكذا انتهت هذه الغزوة المخفقة، بانكسار قلّما عرفت رومة مثله ذلاً وصغاراً. ومن جيش كراسوس البالغ ٤٤,٠٠٠ لم يرجع الّا ١٠,٠٠٠ ادركوا سورية فألف منهم كاسوس كتيبتين كلفهما الدفاع عن هذه البلاد. وأسر الفارثيون ١٠,٠٠٠ فاقاموهم في مرو يدفعون عن حدود فارثية غزوات بدو تلك البطائح. وبلغت خسارة الرومان ٢٠,٠٠٠ رجل وألوية سبع كتائب[1].

* * *

ظلّ هذا العار لاحقاً بالرومانيين حتى عهد اغوسطوس. فلا قيصر الذي اعتزم في آخر ايامه تعبئة جيش ينازل الفارثيين، ولا انطونيوس الذي قام بغزوة مخفقة على فراآتا، لم يتمكنا من استعادة العقبان الرومانية التي خسرها كراسوس. بل ان اغوسطوس نفسه لم يتوصل الى ذلك الّا بطريق المفاوضات السياسية سنة ١٩ ق. م.، اي ٣٤ سنة بعد تلك المعركة المشؤومة.

وشدّ ما افتخر الامبراطور بهذا النجاح حتى انه حفر، في عهده السياسي المنقوش على جدران هيكل انقرة (أنكرة اليوم) ما معناه:

«عدد كبير من الألوية الحربية التي خسرها غيري من القوّاد استرجعتها من الاسبان، والغاليين، والدلماتيين. وأجبرت الفارثيين على ارجاع أسلاب ثلاثة

---

١) راجع W. Tarn, *Les Parthes*, p. 18

جيوش رومانية والويتها ، وعلى ان يطلبوا صاغرين ، صداقة الشعب الروماني. وكل هذه الألوية والشعائر وضعتها في هيكل المريخ أولتور »[٢] .

ولم يغفل الشعراء والفنانون عن التهليل لرجوع هذه العقبان الرومانية . وقد رأينا على دينار روماني مضروب في السنة ١٨ ق.م. اشارة الى استقبال اغوسطوس لهذه الألوية المسترجعة ، اذ نُقش على احدى جهتي الدينار *Caesar Augustus*, *Signis receptis.* ، وعلى جهته الاخرى مُثل قوس النصر المقام في ساحة الفوروم. ونحت الفنانون صورة إرجاع الألوية على درع اغوسطوس في تمثاله الرائع المكتشف عند بريما پورتا .

* * *

ومن الحق ان نختم بقولنا ان الفارثيين ومن اتى بعدهم من الفرس الساسانيين قاوموا رومة ، ثم بيزنطية ، مقاومة مجيدة دامت حتى الفتح العربي في القرن السابع للمسيح .

٢) راجع Tarn, *op. cit.*, p. 19